الملامح العجائبيّة في رواية باب الجمر

نور شبلي*، سعد الدين كليب**

*طالبة دراسات عليا (ماجستير)، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب

** قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب

الملخّص

يحتلّ الأدب العجائبيّ حيزاً لافتًا للنظر في الرواية العربيّة، ولاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة، فقد مال عدد من الروائيّين إلى خلق عوالم تمزج بين الطبيعيّ وفوق الطبيعيّ، في محاولة منهم؛ للتعبير الأعمق عن مجريات الواقع العربيّ المعاصر الذي يعيشونه ويعانونه في الوقت نفسه.

وسيعمل هذا البحث على الإضاءة على الرواية السوريّة من خلال منظار مغاير؛ منظار العجائبيّة، متّخذاً من رواية باب الجمر للروائيّ السوريّ وليد إخلاصيّ أنموذجاً تطبيقيّاً لذلك، فهي من الروايات السوريّة الغنيّة بالعوالم العجائبيّة، وكما سيعمد البحث إلى استشفاف ملامحها، واستكشاف اشتغالها، وامتداد تأثيرها على بنى الرواية؛ فسيتطرّق بالحديث إلى الموضوعات، والشخصيّة، والفضاء ببعديه المكانيّ والزمانيّ، وكما سيعرّج من خلاله على الوظائف.

كلمات مفتاحيّة: العجائبيّة، باب الجمر.

ورد البحث للمجلة بتاريخ25/ 9/ 2017

قبل للنشر بتاريخ11/ 10/ 2017

مقدمة: يعرّف تزفتان تودوروف العجائبيّة "بأنها زمن التردّد الذي يحياه كائن لا يعرف غير القوانين الطبيعيّة أمام حدث فوق طبيعيّ"[1]. ويضع تودوروف ثلاثة شروط لتحقّق العجائبيّة: أوّلها لابدّ أن يحمل النصّ القارئ على اعتبار عالم الشخصيّات عالمَ أشخاصٍ أحياء. ثانيها أن يكون التردّد بين تفسيرين طبيعيّ وفوق طبيعيّ محسوساً بالتساوي من طرف شخصيّة، وعلى ذلك يكون دور المتلقي مفوّضاً إلى الشخصيّة، وفي الوقت نفسه، يوجد التردّد ممثلاً، فيصير من موضوعات الأثر، ويتوحّد المتلقي مع الشخصيّة في حالة قراءة ساذجة. وآخرها ينبغي أن يختار المتلقي نوعاً من القراءة تُبعد التأويلين الأليغوري والشعريّ.[2]

ومع تجليّ العجائبيّة في النصّ الأدبيّ العربيّ، واشتغال الأدباء فيها، وبروزها بوصفها مفهوماً نقديّاً "غدا رائجاً ومتداولاً في العقدين الأخيرين"[3]، على الساحة النقديّة العربيّة، تواترت الدراسات النقديّة، وتعمّقت على مختلف الأصعدة والمستويات الأدبيّة، وفي الوقت نفسه خطت الرواية العربيّة عامّة والرواية السوريّة خاصّة خطوات نحو الأمام في الانتحاء إلى العوالم العجائبيّة وخلقها وتأسيسها وتقديمها كعوالم متكاملة، وقد طالت تأثيراتها البنى والتقنيات الروائيّة كافّة. ولعلّ الروائيّ وليد إخلاصيّ من أبرز الروائيّين السوريّين الذين اختطّوا طريق العجائبيّة، وارتادوا عوالمه في نتاجهم الروائيّ، ومنه رواية باب الجمر، وسنضيء على هذه الرواية؛ لنستكشف عوالمها العجائبيّة، وآليات اشتغالها، ومدى استثمارها للبنى والتقنيات الروائيّة في رفد العجائبيّة وإشعاعها:

الموضوعات: قام تزفتان تودوروف في كتابه بتصنيف الموضوعات العجائبيّة في شبكتين: الأنا والأنت، "والمبدأ المولّد لشبكة الأنا تقويض الحاجز بين المادة والروح،

[1] ينظر: بوعلّام، الصدّيق : في تقديمه لكتاب: تودوروف، تزفتان: مدخل إلى الأدب العجائبيّ، تر: الصدّيق بوعلّام، دار الكلام– الرباط، 1993، ص18.

[2] ينظر: تودوروف، تزفتان: المرجع نفسه، ص54.

[3] ينظر: برادة، محمد: في تقديمه لكتاب: تودوروف، تزفتان: المرجع نفسه، ص5.

أمّا مولّد شبكة الأنت فهو الرغبة الجنسيّة"[1]. وتجنح رواية باب الجمر نحو الشبكة الأولى، ومن الموضوعات العجائبيّة البارزة فيها:

الامتساخ والتحوّل: غطّى التحوّل أو الامتساخ عدداً من أنواع الكائنات:

الإنسان: ثمّة نوع من الامتساخ أو التحوّل يصيب عمر الإنسان ونموّه، وكان لهذا النوع حضور مكثّف في أكثر من رواية سوريّة*، ونلفي له صوراً متعدّدة، وفي رواية باب الجمر كنّا مع تسارع المراحل العمريّة عبر اختزالها ونموّها المتسارع:

ونجد ذلك متمثّلاً في شخصيّة الطفل محبّة الجمر، فعائلة أحمد النسّاج كانت تنتظر قدوم صبيّ، بعدما رُزقت بخمس بنات، وإذ بها تباغت بمولود يعارض التدرّج الزمني للنمو الإنسانيّ، وقد حاول والده التأقلم مع الطفل العجائبيّ الذي اخترق عائلته، و"بالرغم من كلّ شيء، فقد كانت مخاوف أحمد تأخذ لها مكاناً في قلبه، إذ يراقب نمو محبّة السريع، فالأمّ لم تكن لتنجز خياطة ثوب له [محبة الجمر]، حتّى يضيق ويقصر، فتبدأ في صنع غيره، وهكذا كان الأمر يثير الريبة أحياناً، فتلغيها الأمّ مشيرة إلى صدرها الذي يقدّم الحليب غير المغشوش"[2]، "وما إن اقترب محبّة الجمر من عامه الأوّل، حتّى يصبح حجمه كأخته الصغيرة زهرة، التي تكبره بسنوات، فيمشي على قدمين قويّتين، وتثاقل وكأنّه بطّة معجبة بنفسها"[3]

الحيوان: فالحيوانات المفترسة تطيع محبّة الجمر، وتفقد صفاتها أو تتأنّسن، فالذئاب تصغي إليه باحترام، وتلحق به بعد ذهابه. والأفعى تعانق محبّة الجمر، وتسير في أرض دياره مطمئنة، وكذلك العناكب[4].

النبات: يصيب التحوّل النبات، فيفارق في العجائبيّة صفاته الطبيعيّة، فيتأنسن ويحوذ صفة إنسانيّة. فمحبّة الجمر في الرواية "يتواصل مع الزهرة ويخاطبها، ويلاقي استجابة

---

[1] ينظر: تودوروف، تزفتان: المرجع نفسه، ص174، 175.

*من مثل: رواية فقهاء الظلام للروائيّ سليم بركات

بركات، سليم: فقهاء الظلام، كتاب الكرمل2، ط1، 1985.

[2] إخلاصيّ، وليد: باب الجمر، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب– دمشق، ط1، 1985، ص71.

[3] المصدر السابق، ص98.

[4] ينظر: المصدر السابق، ص195، 196، 109.

منها، وتصغي إليه بتهذيب."[1]

الشخصيّات: أفعال الشخصيّات وأنواعها: من الشخصيّات المحوريّة في الرواية محبّة الجمر، فلقد لعبت دوراً رئيساً وقامت بعدد من الأفعال، ومرّت بعدد من الأطوار، فحركّت أحداث الرواية، ونمّت السرد بكلّ تحولاتها الشخصيّة والعجائبيّة، وأسندت الرواية إلى الطفل العجائبيّ أفعالاً فوق طبيعيّة وأخرى طبيعيّة، ومن الأفعال فوق الطبيعيّة "حفظ السور القصار وجزء عمّ والأشعار وجدول الضرب، وهو في السنة الثانية من عمره، وأتقن قراءة الكتب كلّها في حين لم يبلغ الخامسة، طارحاً تساؤلات ملحّة، كما صادق الحيوانات الأليفة والمفترسة، وقصّ عليهم القصص، وابتدع بيوتاً للحيوانات، كما خطب في الناس في المقهى، طالباً منهم التوقّف عن القتال، وعلّم أولاد حيّ القيصريّة. قرأ عن تاريخ الراس وعائلته، وغدا مسكوناً بمتابعته وبالبحث عن باب الجمر المفقود مع معلّمه الصالحانيّ"[2]. ويمكن أن ندرج ما سبق من أفعال محبّة الجمر، تحت عنوان ماقبل لقاء جمانة، فاللقاء بجمانة هو نقطة التحوّل في شخصيته، هذه النقطة التي غيّرت مسار أفعاله، وأفقدتها سمتها فوق الطبيعيّة بعد التحوّل، فالتحوّل في شخصيّته ترافق بتغير سمة أفعاله من فوق طبيعيّة إلى طبيعيّة، "فما بعد لقائه بإحدى نساء الراس جمانة، وقضائه ليلته معها، وعمله كمستشار لأبيها الحردون في اقتناء الآثار والسجاد القديم، حزن محبّة؛ لفقدانه التواصل مع الحمامات، ولأنّه لم يعد قادراً على الإجابة عن أسئلة الأطفال، وأضحى مثاراً للهمّ في بيته، بعدما ما كان شعلة فرح فيه، وكما أثّرت تأثيراً غير مباشر على علاقته معلمه الصالحانيّ"[3]. ويطلب محبّة العجائبيّ من جمانة رؤية الشخصيّة العجائبيّة جدّها الراس، وهدّد جمانة برهن لقائه بها برؤيته للراس، ولم يستمر محبّة في وضع ما بعد جمانة، "فلقد توسّل إلى الصالحاني أن يذهبا؛ للبحث والتنقيب عن باب الجمر"[4]، ممّا أفرح

[1] ينظر: المصدر السابق، ص109.

[2] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص127، 131، 142، 233، 235.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص251، 272، 282، 287.

[4] ينظر: المصدر السابق، 290، 292.

الصالحانيّ:"هي بداية الشفاء من حبّ امرأة، تنتمي للراس"[1]، "فيحفران حفرة؛ للتنقيب عن أثر لباب الجمر ويختفيان"[2]، وبذلك لم يرضخ محبّة للتحوّل الحاصل في شخصيّته، بل حاول استعادة وضعه الأوّليّ–ماقبل التحوّل. وإذا نظرنا إلى الشخصيّات العجائبيّة من الكائنات الأخرى غير الإنسانيّة، نرى أن أغلب الروايات أوكلت إليها أفعالاً قليلة، ولم تسترسل في إيلائها أكثر من فعل أو فعلين، وكانت من الشخصيّات المكمّلة في الرواية، "فإنّ الشيء الأساسيّ في الخطاب الفانتاستيكيّ المتعلّق بالشخصيّة أنّه يبني شخوصاً ثانويّة لها طبائع سويّة؛ حتّى تقيم التعارض، أو ذات طبائع عجائبيّة؛ قصد تعضيد الشخوص الرئيسيّة."[3] تتباين نوعيّة أفعال الشخصيّات العجائبيّة في الرواية، فإلى جانب الأفعال فوق الطبيعيّة المنوطة بها، ثمّة أفعال للشخصيّة العجائبيّة، تندرج ضمن المسار الطبيعيّ وممّا يمكن أن يكون، أو منها ما يمتلك قابليّة الوجود ولكن ينحو نحو الغرابة لندرته، وقد تجمع الشخصيّة العجائبيّة الواحدة نوعيّات الأفعال كلّها، وقد تقتصر على نوعيتين أو واحدة وحسب، ويأتي الجمع بين نوعيّة الأفعال الطبيعيّة وفوق الطبيعيّة تحقيقاً لشرط من شروط العجائبيّة؛ وهو تصادم الطبيعيّ وفوق الطبيعيّ؛ لتولّد الحيرة، "وتحقّق بذلك متعة التعرّف إلى الشخصيّات التي تأتي بالخوارق والعجائب، فتدهش وتفجأ وتمتع وتزيد من قوّة الخيال، ويتحرّر المتلقي من واقعه، ويدخل في عوالم مختلفة، ويحقّق خلاصاً مؤقّتاً، هو خلاص فنّيّ خياليّ"[4]. والمثير للانتباه أنّنا لا نجد غوصاً في إيلاء الشخصيّات من الكائنات الأخرى غير الإنسانيّة أفعالاً عديدة، بل اكتفت بفعل–وهو الفعل فوق الطبيعيّ–، أو فعلين، ويمكن أنّ نرد ذلك إلى إحجام الروائيّين عن التوغّل في العجائبيّة؛ خوفاً من عدم الإقناع، وخاصّة مع الكائنات الأخرى التي يستبعد أن تقوم بفعل فوق طبيعيّ، ويعدّ قيامها بذلك ضرباً من الخيال في الحياة الإنسانيّة.

[1] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص292.

[2] المصدر السابق، ص294.

[3] حليفيّ، شعيب: شعريّة الرواية الفانتاستيكيّة، الدار العربيّة للعلوم ناشرون– لبنان، ومنشورات الاختلاف– الجزائر، ط1، 2009، ص208.

[4] ينظر: محبّك، أحمد زياد: نقد السرد، دار الفرقان للّغات– حلب، 2012، ص120.

صفات الشخصيّة: إنّ مراحل النموّ العجائبيّة لشخصيّة محبّة الجمر، كانت مبعثاً لصفات فوق طبيعيّة، "فحجم رأسه غير طبيعيّ، فهو رضيع له رأس كبير"[1]، كما أنّ "نظرات الصبيّ تبدو وكأنّها لطفل اكتمل نموّه"[2]. وهذه العجائبيّة غدت مثاراً لعدد من الأقاويل المتناولة لمحبّة الجمر، والمسبغة عليه صفات فوق طبيعيّة مرسومة من نتاج مخيلاتهم، فـ"قيل إن محبّة أو الجمر، إذ لم يتفق أحد على الاعتراف باسم محدّد للمولود، له ذنب ظاهر في مؤخرته، وأنّ نابين حادين شقّا شفته السفلى، كما ظهر له قرنان في مقدمة رأسه، يجعلان من الصبيّ، وكأنّه حيوان دخل في جلد إنسان، فتشاءم الرجال العجائز من العلامة على أنّها نذير شؤم، وعملت النسوة على قراءة الودوديّة في جلسات سريّة؛ لإبعاد شبح المصيبة عن الحيّ"[3] ولجأت الرواية إلى وصف تشبيهيّ لمحبّة الجمر غير مرّة، موظّفة إياه مفصحةً عن جماله الآخّاذ، فلما نما محبّة "تألّقت عيناه كياقوتتين نادرتين، وتورّدت وجنتاه مثل رغيفين طازجين، صنعا من قمح بكر"[4]، ومعلّمه الصالحانيّ صوّر مراحل نموّه المتسارعة بعدسته التصويريّة، "وكانت تلك العدسة الدقيقة تسجل أسبوعاً فأسبوعاً على أقلّ تقدير، مراحل نموّ جمر المحبّة، وزوايا وجهه المشرق أبداً بابتسامة لتلك العين السحريّة، ونما كالحرير شعر الصغير الخرنوبيّ الضارب إلى الحمرة؛ ليصل كتفيه، فيغطيها بغزارة، فيبدو كفتى محارب من شجعان الغابات والجبال أو كواحد من فتيان أيام الحرب الأولى، كان محبّة الجمر متماسك العود، وفي صلابة عود الزيتون الطريّ، ولكن رقّة أزهار الليمون لم تفارقه لحظة"[5].

كما أنّ هناك وصفاً تشبيهيّاً وشاعريّاً، وهو وصف ثلاثيّ من وجهة نظر ثلاث شخصيّات، لشخصيّة محبّة الجمر أثناء الحدث الواحد؛ وهو لقاؤه بجمانة ومراقصتها، ذلك الحدث المفصليّ في حياة محبّة الجمر؛ ولذا أولته الرواية عناية في

[1] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص56.

[2] المصدر السابق، ص57.

[3] المصدر السابق، ص61.

[4] المصدر السابق، ص70.

[5] المصدر السابق، ص126.

الوصف، وأجمع الوصّافون على جمال محبّة، فالصالحانيّ يراه "كمثل الزهرة حقيقيّة وغريبة بجمالها في حقل من الأعشاب الطبيعيّة، هكذا كان يحسّ بمحبّة الجمر، وهو يراقبه بشغف وخدر، كان محبّة يستجيب للإيقاعات الموغلة في قدم المدينة، فكأنّما هو المدينة تفتح ذراعيها لمن يحبّها ويبحث عن جذورها، أحسّ بالفتى، وهو يدور على نفسه بذراعين مفتوحتين، كشجرة عارية أعطت غصنين بالأوراق، وأحسّ الصالحانيّ في غمرة المراقبة أنّ شكل محبّة الجمر في التفافه على نفسه، بات كمصرعي باب الجمر تماماً، فينفتح الباب عن عالم من الأسرار والأحلام، فيدخل فيه الصالحانيّ بشوقه إلى معرفة اقتربت من السحر، ففقدت كلّ معطيات الواقع الذي يريد أن يمسك به"[1]. أمّا مراقصته جمانة فتمثّل لها "مثل جنيّ فاتن يطوف على بشر استسلموا لسحره، هكذا كانت جمانة تحسّ، وهي تلاحق بوجودها المشتعل محبّة الجمر، وقد تحوّلت كفّاه إلى منديلين مطرّزين بنجوم لم يعرفها علم الفلك من قبل، كانت تعرق شوقاً إلى قربه، وكان يذيقها رائحة الوصل إذ يقترب منها، فيصبح البعاد عنه إذا ما استدار على نفسه كالقمر؛ ليعطيها ظهره، فيصبح كالمستحيل تجاهد من جديد؛ للبحث عنه"[2]. ولمحبّة وجهة نظر وصفيّة لنفسه عرضتها الرواية، فألفى ذاته "مثل طائر أطلق من قفصه بعد حبس طويل، هكذا شعر محبّة الجمر بنفسه تستجيب بكلّ لحمه وعظمه وأنفاسه وسمعه وبصره وذكرياته للمقطع الذي جعل المغنّي يكرّره مرّة بعد مرّة، فيخيّل للفتى أنّه يسقط في دوامة تسبّب المتعة لا الدوار"[3]

نلاحظ أنّ الرواية وهبت محبّة صفات تشبيهيّة شاعريّة لمحبّة الجمر مع الحدث اللاعجائبيّ؛ وهو تحوّل شخصيّته، وتواصله مع جمانة، ولم تعمد إلى منحه صفات فوق طبيعيّة كما سلف مع الحدث العجائبيّ في نموّه فوق الطبيعيّ، وكان هذا نابعاً من طبيعة الحدث ومتناسباً معه. وإذا ما عرّجنا على الصفات الداخليّة لمحبّة وجدناه رقيقاً بالحيوانات والنباتات، عطوفاً على عائلته، ولم تتغيّر صفاته مع الحدث

[1] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه ، ص272.

[2] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[3] المصدر السابق، ص272.

العجائبيّ، بل مع التحوّل الطارئ على شخصيّته، ففقد البراءة والرفق والأنس وأحسّ بالضيق والضياع، فابتغت الرواية من وراء ذلك عرض آثار التحوّل نفسيّاً على شخصيّة محبّة.

الاسم: وسمت الرواية الشخصيّة العجائبيّة باسمين؛ محبّة وجمر، وهذا ما يثير غرابة حوله وحول اسمه، فمعلمه الصالحانيّ أسماه جمر، أمّا أبوه فتخيّر اسم محبّة، وهذان الاسمان يتناغمان مع دوره وأفعاله العجائبيّة في بيته وحيّه، وكان له اسمان مفردان، ثم تحوّلا إلى اسم مركّب تركيباً إضافيّاً من الاسمين السابقين، دون لقب؛ رغبة من الرواية في التركيز على إشعاع دلالة الاسم كما سنرى، "ومع تعاقب الأيام، بات الطفل محبّة يدعى جمر المحبّة، أو محبّة الجمر، وماعاد ينادى باسمه إلا بوقت قليل"[1] وهو اسم غريب، وغرابة الاسم تتبع من غرابة الشخصيّة، "الصبي الغريب الذي يحمل اسماً غريباً"[2]، "ويسرّ الصالحانيّ؛ لانتشار الاسم المركّب الذي اختاره للصغير"[3]، "فلحقت بصورة الاسم تغيّرات ناجمة عن تقلبات الشخصيّة في المتن الروائيّ، مرفقة بتسويغات لذلك التغيّر والتحوّل."[4] وكلّ من الاسمين يحمل دلالة معجميّة متناقضة مع الأخرى، فمحبّة هو اسم يملك بعداً معجميّاً يدلّ على الحبّ والتآلف ويخلّف في النفس الاطمئنان والسرور، وأمّا جمر فبعده المعجميّ يفصح عن الاشتعال والاحتراق، ويولّد في النفس مشاعر التوجّس والخوف. وهذا البعد استثمرته الرواية دلاليّاً وربطته بالشخصيّة على مدار الرواية. وفعّلت الرواية هذا الاسم دلاليّاً على صعيد عدّة مكوّنات روائيّة: بوسم عنوان الرواية بباب الجمر، ومكان جريان أحداثها بباب الجمر، فحمل محبّة الجمر اسم حيّه وعن طريق ربط الاسم دلاليّاً بالشخصيّة الموسومة به، وبموضوع الرواية وبمقولاتها، وأفصحت الرواية عن ذلك؛ من خلال تبيان سبب تسميته باسمين غير مرّة في متنها: فالصالحانيّ يقول: "سمّه

[1] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص125.

[2] المصدر السابق، ص60.

[3] المصدر السابق، ص126.

[4] ينظر: بحراويّ، حسن: بنية الشكل الروائيّ، المركز الثقافيّ العربيّ– بيروت، ط1، 1990، ص257.

جمراً بين الناس، وليكن محبّة بينكم في الدار"[1]، "هو ابن الحيّ، فإذا كان الباب لم نعثر عليه بعد، وقد سمّيّ الحيّ باسمه، فليكن ذكر الجمر قائماً في ابنك الذي جاءك هبة"[2]، "وكان أحمد [أبو محبّة الجمر] إذا ما تحدّث عن (محبّة) صحّح له الصالحانيّ برقّة قوله (جمر)، فلم يكن ذلك الخلاف على الاسمين بأي حال سبباً في نزاع حول أفضليّة واحد على آخر"[3]، "وإذا ما سئل الأب عن قراره في اتخاذ اسم من بين اسمين شاعا في الحيّ، فكان يقول أنّه سيكون الجمر إذا ما استمرّ في مرضه، وسيصبح المحبّة إذا ما شفاه الله"[4]، فمحبّة الجمر هو معادل موضوعي لحال حيّ باب الجمر، ويبغون أن يستلّ من اسمه ماهو إيجابيّ، فأمّه ترى أنّ "محبّة قويّ، ولكن لا يعرف الأذى، ومعظم الأقوياء مغرمون بالأذى"[5]، ولمّا أسماه أبوه (محبّة) ابتغى أن يملك محبّة الجمر المحبّة والقوّة من دون أذى، ويدعو إلى المحبّة في حيّه، وهذا ما كان عندما "خطب في الناس في المقهى، داعياً إياهم إلى المحبّة ووقف الاقتتال"[6]، ومراد الصالحانيّ من اختيار اسم جمر، يكمن في أمله في أن يكون محبّة الجمر، الجمر المختبئ تحت الرماد، والمتّقد المنتظر أن تهبّ الرياح؛ ليشعل نار التغيير في مجتمعه الخالد إلى الخرافات، والراكن إلى ذلّ عائلة الراس. فعندما تأتي الرواية باسم غريب أو ذي إيقاع غريب يقدّم السارد تأويلاً إضافيّاً لوجودها، من خلال ما يشبه الحكاية في معظم الأحيان، وقد يعمد إلى تلافي الغموض من خلال تطوير لملفوظات حكائيّة لصيقة بدلالة ذلك الاسم"[7]. كما أُضيف إلى محبّة أسماءً أخرى، فعندما انتقلت عائلة محبّة الجمر إلى السكن في حيّ الحريقة، اندهش أهل حيّ الحريقة بجمال محبّة الجمر، "واستعادت قيصريّة الحريقة حياتها، وأطلّ الجيران

[1] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص58.

[2] المصدر السابق، ص58.

[3] المصدر السابق، ص62.

[4] المصدر السابق، ص71.

[5] المصدر السابق، ص128.

[6] ينظر: المصدر السابق، ص142.

[7] ينظر: بحراويّ، حسن: المرجع نفسه، ص254.

بفضولهم وترحيبهم بالسكان الجدّد، وتناقلت صبايا الحارة أخبار الفتى الجميل، فكان له عندهنّ أسماء مختلفة، كـ محبّة الفؤاد، وجمر الحبّ، ويوسف الجمر"[1] ، وهذه الأسماء تتناسب واتّصاف محبّة الجمر بالجمال الخارجيّ، وكذلك الجمال الداخلي المنعكس جمالاً خارجيّاً. كان اسم الشخصيّة المحوريّة العجائبيّة في رواية باب الجمر موفور العناية، اهتمت الرواية في اختيار الأسماء، وتناسب دلالتها مع الشخصيّة ودورها على مدار الرواية، وتفعيله على صعيد مكوّنات روائيّة، وأفصحت عن سبب التسمية، لكلّ اسم من الأسماء المختارة لها، في المقابل نراها تكتفي بالتسمية العامّة.

علاقات الشخصيّات: كانت عجائبيّة الطفل محبّة الجمر مثاراً لعلاقة قائمة على التوتّر من قبل الشخصيّات المنفعلة بعجائبيّته، انعكاساً لتأثّرها في عجائبيّته "كخوف جارتهم بهيّة من نظرات جمر المتفحّصة"[2]، التي لا تتناسب مع عمره، "وهول أهل الحارة والشيخ وتردّدهم أمام عجائبيّة الطفل"[3]، "كما صُعقوا مذهولين مصغين عندما جاء محبّة إلى المقهى خاطباً فيهم، داعياً إياهم إلى المحبّة وتوقّف القتال"[4]. أمّا عائلة محبّة الجمر فكانت علاقتها به في البداية علاقة حبّ وعطف ممزوجة بالتوتر بعجائبيّته، ثمّ طغى فيها حبّ صافٍّ، "فكانت أخواته الخمس فرحات بنطق محبّة الجمر لأسمائهنّ، ويعقدن له حلقة غناء جماعيّ يغنين فيها كلمات تعبّر عن محبّتهن له، ومنسوجة على لحن شعبيّ معروف."[5]، وكذلك حال أبيه أحمد النسّاج فهو ممتلئ حبّاً لمحبّة، و"يخاف عليه من أعين الناس، وغدا همّه كيف سيقدّمه إلى الناس"[6]، أمّا أمّه فكانت مسكونة بحبّه وخوفها عليه، وتتلهّف لرؤيته دائماً، وعشقها يتزايد يوماً بعد يوم، فلقد شعرت من خلاله بأمومتها الطاغية"[7]. وفي كلّ هذا لا تتوضّح علاقة

[1] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص226.

[2] ينظر: المصدر السابق، ص60.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص71، 72، 80، 81.

[4] ينظر: المصدر السابق، ص142.

[5] ينظر: المصدر السابق، ص125.

[6] ينظر: المصدر السابق، ص100.

[7] ينظر: المصدر السابق، ص107.

محبّة الجمر بالشخصيّات السابقة بشكل كبير، وكأنّ هدف الرواية الإضاءة بشكل مكثّف على ردّات فعل الشخصيّات على عجائبيّة محبّة الجمر، والإضاءة من خلالها على علاقاتهم به وعلى عجائبيّته. ولكن في المقابل سلّطت الرواية الضوء على علاقة محبّة الجمر بمعلمه الصالحانيّ؛ كونها رافداً مغذّياً لمسار الأحداث وتطورها في الرواية، واتّضحت علاقته بمعلّمه الصالحانيّ عندما ازداد نموّاً، ونمت بينهما علاقة صداقة ومودّة ورغبة في العلم، فالصالحانيّ "رأى في محبّة تربة خصبة، فأروى ظمأ محبّة الجمر بالإجابة عن تساؤلاته"[1]، و"تعهدّ بأنّ يمدّه بالعلم والمعرفة، وكما يرى محبّة في معلّمه الصالحانيّ صديقاً"[2]، فيتعانقان كصديقين، ومعلماً فيناديه: "يابحر العلوم، وقنديل المعارف"[3]، ثمّ تفرّعت العلاقة بينهما إلى علاقة تواصل، تقوم على مساعدة محبّة لمعلمه في التنقيب عن باب الجمر، والكشف عن سرّ عائلة الراس؛ وإنّ رغبتهما في قيامهما بهذه المهمة، ولّد بينهما وبين عائلة الراس علاقة صراع مخفيّة غير معلنة، أدّت إلى موتهما من خلال ردم عائلة الراس الحفرة عليهما أثناء تنقيبهما عن باب الجمر؛ تلك العائلة التي حاولت أن ترسم هالة حولها؛ ليهابها الناس، من خلال إبراز صلتها بشخصيّة الراس العجائبيّة التي تقترب من شخصيّة البطل في الحكاية الشعبيّة من خلال الأعمال التي تقوم بها؛ ولذلك فإنّ الشختورة – وهو فرد من أفراد عائلة الراس– نفر من محبّة الجمر وكان معارضاً له؛ لدعوته الناس إلى أفكار لا تتناسب وما تصبو إليه عائلة الراس، و"راهن على أنّ محبّة الجمر لقيط ربّاه أحمد النسّاج لإيذاء الناس."[4] أمّا جمانة–إحدى نساء الراس، وهي سبب التحوّل في شخصيّة محبّة الجمر– "فلقد انجذبت إليه، وسحرته عندما دفعته إلى الرقص معها؛ فنشأت علاقة حبّ بينهما"[5] قصُر عمرها متحوّلة إلى "علاقة حقد من قبل جمانة على محبّة الجمر؛ لأنّه حوّل علاقتهما إلى قطيعة، فلم يستمر في مبادلتها

[1] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه ، ص101.

[2] ينظر: المصدر السابق، ص127.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص252.

[4] ينظر: المصدر السابق، ص203.

[5] ينظر: المصدر السابق، ص253.

الحبّ، وجعل حبّه لها مشروطاً بمساعدته على رؤية الراس"[1]. كما نشأت علاقة صداقة بين محبّة الجمر والحيوانات المفترسة، فلقد "امتثلت الحيوانات لأمره، ولوّح محبّة بيده لهم، وكأنّه يودّع أصدقاء قدامى"[2]، ولكن لمّا سحرته جمانة فَقَدَ هذه العلاقة الوديّة، كما فقد التواصل معها. نلاحظ من خلال ما سبق توظيف الرواية للعلاقات بما يتناغم والعجائبيّة وإبرازها وإضاءة امتداد تأثيراتها في شبكة الأحداث في الرواية.

الفضاء: وإذا ما أمعنا النظر في الفضاء المكانيّ والزمانيّ، رأينا أنّ الفضاء المكانيّ الذي تدور فيه أحداث الرواية هو مدينة حلب، وهو فضاء ذو مؤشّرات مرجعيّة، ولكن عندما نغوص في الرواية نراها تقدم باباً جديداً متخيّلاً لأبواب هذه المدينة؛ وهو باب الجمر المندثر والمختفي لأسباب مجهولة، مع سيطرة أسرة الراس على السلطة فيه والتحكّم بأهله. وتُؤرّخ الرواية لهذا الباب منذ الصفحة الأولى وتعمل على الإيهام بواقعيّته، من خلال عدّة أمور؛ العتبة النصيّة الأولى ذات الإيهام التاريخيّ[3]، ومن خلال وصفه بتفاصيل ومعلومات دقيقة، وبما استفاضت في شرح جغرافيّته، وبما صنع التاريخ فيه وبما صنعه له، –وإن أسهبت الرواية في ذلك بعض الشيء– وبما كان له من تأثير في قاطنيه من الشخصيّات اجتماعيّاً وفكريّاً، وبما يعجّ به أحداث. فتصوّر الرواية لنا الفضاء بجزئيّاته، وكأنّ هدفها إشعارنا أنّنا في عالم واقعيّ لا خياليّ، "فقد يميل بعض الروائيّين إلى الاسترسال في وصف المكان، وتحديد جغرافيّة المكان بدقّة؛ في محاولة منهم لإعطائه صفة المكان الواقعيّ."[4] فنرى أنّه ليس مكاناً فارغاً ومفرّغاً من التأثير والدلالة، بل إنّه مكان فعّال ومولّد لدلالات جمّة، ولذلك فقد تمّت عنونة الرواية باسمه، وحتّى إدراج تسميّته في متنها جاء في إطار إضفاء واقعيّة تاريخيّة إيهاميّة عليه؛ فلقد عثر أحمد الصالحانيّ المنقّب على آثار لباب الجمر على

[1] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص291.

[2] ينظر: المصدر السابق ، ص195، 196.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص5.

[4] ينظر: جنداريّ، إبراهيم: الفضاء الروائيّ في أدب جبرا إبراهيم جبرا، تمّوز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق، ط1، 2013، ص204، 214.

"مخطوط كُتب بالحبر الصينيّ بعنوان: النوايا الباطلة في إخفاء آثار الأبواب الزائلة"[1]، "ويذكر المؤلف المجهول أنّ منطقة باب الجمر الكبيرة، قد سمّيت نسبةً إلى ذلك الباب الزائل."[2]، وكأنّ المكان في هذه الرواية "غدا –كبعض النصوص الروائيّة– الغاية من إبداع النصّ الروائيّ، أي أنّه ممثّل لرؤية الراوئيّ"[3] ومن حيّ باب الجمر، ومن بيت **أحمد النسّاج** في حارة العين: انبثق عدد من الأحداث العجائبيّة، ففيه وُلد الطفل العجائبيّ محبّة الجمر، ذلك الذكر المنشود الذي انتظرته عائلة أحمد النسّاج بعد أربع بنات. تصف الرواية البيت غير مرّة؛ كونه من الأمكنة المفصليّة فيها، فوصفته من وجهة نظر الصالحاني؛ أي بعين منقّب الآثار التي تنتقي الأجزاء التراثيّة للمكان في حركة وصفيّة بصريّة تنقّلت بين الأرض والسماء : "وقد كانت دار أحمد النسّاج أوّل بيت يدخله الصالحانيّ، فوقف يتأمل صحنها المكشوف للسماء في الصيف، بينما تطفح بركتها المثمّنة الأضلاع بأمطار الشتاء الغزيرة. وقال لصاحب الدار الذي أكرم وفادته منذ البداية: لا أظنّ دارك القديمة إلّا ذات صلة بباب الجمر. من يدري فقد تكون أحجار سورها أو هذا الليوان من بقايا أحجاره"[4]، فأرهص بنظرته الوصفيّة هذه إلى دور محبّة الجمر في الكشف عن حقيقة الباب. وتورد الرواية أيضاً وصفاً ممتزجاً بوجهة نظر الصالحاني، وبمشاعره الاستشرافيّة تجاه المكان، فلقد وجد في بيت أحمد النسّاج راحة وطمأنينة؛ وهذا ما حصل فيما بعد بولادة محبّة فيه، وقد رأى فيه الصالحانيّ أملاً وفرحاً ومخلّصاً لباب الجمر: " ولم يعلم الصالحانيّ سرّ انجذابه إلى الدار، إن كان ذلك في الحجر أم في الوداعة التي تسكن الدار المسوّرة بجدران من أحجار موغلة في القدم، [وتكمل الرواية وصف البيت وصفاً مخالطاً لرؤيتها له]. وكان بيت أحمد يستقبل الشمس التي تغمره بالدفء، والريح التي تلعب بحريّة، بينما العصافير التي اطمأنّت إلى السكان، فبنت أعشاشها على الأشجار، وفي

[1] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص18.

[2] المصدر السابق، ص19.

[3] أحمد، مرشد: البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر– بيروت، ط1، 2005، ص128.

[4] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص24.

فجوات السور، وقد نخر فيها الزمن، قد آنست إلى صوت النول الرتيب لا تفزعها حركته الأشبه بنبض القلب..."[1] وكان محبّة الطفل المدلّل في هذا البيت محطّ حبّ واهتمام من عائلته على الرغم من عجائبيّته، ولذلك كان البيت المغلق الضيّق على محبّة متّسعاً أليفاً حميمياً مضاءً بالشمس الدافئة، "وبما أقامه من علاقات ودّ وصداقة مع الحيوانات"[2]، ولكن فيما بعد شكّل البقاء فيه خطراً عليه عندما أصبح هدفاً للشرّ، "فاضطرت العائلة إلى هجرته خوفاً على محبّة."[3] يتّضح في هذا البيت نسق ثقافيّ من خلال الأولويّة الذكريّة، والتفريق بين الذكر والأنثى، والنظرة الموجّهة للذكر بأنّه "سيحمل سرّ مهنة أبيه النسّاج ويحفظ استمراره ويحمل اسمه."[4] وأمام عجائبيّة محبّة، لجأ أبوه إلى عدد من الأمكنة؛ لعلّه يلقى تفسيراً لها، ومنها مغارة شيخ الجبل:

مغارة شيخ الجبل: فكانت ملجأ لأحمد لحلّ عجائبيّة ابنه. تصفها الرواية وصفاً موضوعيّاً مع بعض الأوصاف التشبيهيّة، بغرض تحديد موقعها، فعناية الرواية الفائقة بالوصف والإسهاب فيه أحياناً، جعلها لا تكتفي بوصف المكان فقط، بل بوصف الطريق إليه: "كان مقرّ الشيخ في نهاية الممر الترابيّ، ينزلق عند خاصرة الشارع الذي يزنّر الحيّ؛ ليصبّ في بطن تلّ، لا ينبت فيه عشب، وكأنّ ركام رماد تساقط من السماء، هو الذي رفعه من الأرض عبر مئات السنين. وقيل في الحيّ أنّه لولا الشيخ صالح فيه، لبات التلّ رمزاً لهول جهنّم."[5] ثمّ تنتقي الرواية من المغارة أوصافاً تدلّ على طقوس الشيخ ذي الكرامات، وتحيطه بجوّ من القداسة والغموض؛ ليؤثّر في مريديه: "صعد أحمد في الطريق المتدرّجة على سفح التلّ؛ ليقف أمام باب خشبيّ قديم ينتصب عند باب المغارة، وقد تحوّلت شقوقه المستشرية في الخشب إلى شيء أشبه بالرسوم السرطانيّة، وتسرّب السراج الخفيف كان دالاً على استيقاظ الشيخ وهو يتعبّد، وعندما نقر أحمد الباب سمع للمسامير المخلعة صوتاً كاد أن يغطي على صوت

[1] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص31، 32.

[2] ينظر: المصدر السابق، ص105.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص209.

[4] ينظر: المصدر السابق، ص25، 37.

[5] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص75.

الشيخ العميق، ثم دخل ووجد الشيخ يتربّع على بساط قطنيّ يعكس بضوئه ضوء السراج ليصبح أكبر بهاء وغموضاً. وكانت نار الحطب الخامدة تدفع ببخار الإبريق نحو الغطاء؛ لتحدث قرقرة اشتركت مع تمتمات الشيخ في إبعاد الصمت الأجوف عن جوّ المغارة، ونفذت رائحة طيّبة في أنف أحمد، فاستبشر خيراً من مجيئه إلى هذا المكان الذي طالما تحدّث أهل الحيّ عن قدسيّته وسريّته باحترام لا يعادله احترام."[1] فكانت هذه المغارة المغلقة الضيّقة بما فيها من طقوس غامضة تناسب عجائبيّة الطفل، وفي الوقت ذاته تتناغم مع المقيم فيها الشيخ صاحب الكرامات الذي سيمدّ لأحمد يد العون، بمقدرته فوق الطبيعيّة، وبمكانته الدينيّة، فهو المتعبّد، والمعتزل الناس في المغارة، والزاهد في حياته، واختارت الرواية أوصافاً تدلّ على ذلك؛ من مثل الباب الخشبيّ القديم والبساط القطنيّ، واعتمدت في وصفها على تفعيل أكثر من حاسّة لتعميق تلك الدلالة؛ سمعيّة: صوت الباب وقرقرة الإبريق، وبصريّة: شقوق الباب، ضوء السراج ودور لونه الخافت في إضفاء غموض وبهاء على الشيخ، وشميّة: رائحة طيّبة في أنف أحمد، فرسمت بذلك صورة للمكان؛ مبتغيةً أن تكون صورة الشيخ أشدّ تأثيراً في متلقيها. وارتأى أحمد أنّ يجد في مغارة الشيخ بصفاتها تلك، مخلّصاً لمأزقه في عجائبيّة ابنه، فكانت في البداية مكاناً منشوداً أليفاً، ولكن: "بعد قليل، أدرك أحمد أنّ الشيخ الذي جاءه يطلب البركة والنصيحة، كان هو بحاجة إلى من يخفّف عنه ذلك الخوف الخفي، الذي لم تستطع معالم وجهه السمح أن تخفيه"[2]، ففقد ألفته تلك، وخذل أحمد، ومال نحو المعاداة بخذلانه. ولخوف أحمد على ابنه أخفاه في البيت بعيداً عن أعين الناس، وإذ بمحبّة يختفي فجأة، وبعد بحث مضنّ عثر عليه أبوه في:

التخوم الشماليّة لباب الجمر في العراء: ورأى الذئاب تقف أليفة أمام محبّة، ويداعبها وتستجيب له وتطيعه، حيث "كانت بقايا كرم الزيتون تتمثّل في عدّة شجيرات وحيدات، لم يبق منها الصقيع سوى القدرة على الانتصار. كان العراء مجلّلاً بمهابة تشعّ بهراً

[1] ينظر: المصدر السابق، ص75، 76.

[2] إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص80، 81.

خفّف من وطأة المساء القادم، فكان المشهد وكأنّ الأرض مازالت تحتفظ بالنهار ذخراً يسلّي وحشتها. ووقف أحمد على مشارف صحراء الثلج، وقد تاهت منه آثار الأقدام التي كان يتبعها، بعد أن اختلطت بمئات الآثار المتداخلة لأقدام صغيرة لا يمكن أن تكون إلّا لحيوانات هائمة."[1] وصفت الرواية هذا المكان من وجهة نظرها، ورصدت عدّة أجزاء منه مصعّدة من العجائبيّة الواقعة فيه؛ فالعراء بانفتاحه واتّساعه، وبما فيه من ذئاب، ماعاد مخيفاً معادياً لطفل مثل محبّة، بل غدا أليفاً، ومجلّلاً بمهابة من خلال عجائبيّة ذئابه، وليله المضيء، والثلج الذي غطّاه بلونه الأبيض لون النقاء والصفاء. فكان المكان بهذه الصفات دالاً على تصالح الإنسان مع الطبيعة، وقد صرّحت الرواية بغايتها المقوليّة من ذلك؛ فالحيوانات المفترسة تغدو أليفة، "وتكون من أبناء الطبيعة، عندما تأخذ حقّها من الحياة"[2] و"تصبح الذئاب وحوشاً عندما تجوع"[3]، في تلميح إلى الإنسان. كما أنّ ثمّة اختفاء آخر لمحبّة، ثمّ عثر عليه أبوه والصالحاني في:

مقهى الدرويش: وهو يخاطب الناس في أوّل ظهور له أمامهم علانيّة، ودعاهم إلى المحبّة كما في اسمه، وإلى التوقّف عن الاقتتال، وترك الخرافات التي تقود إلى الشرّ، وعيش حياة ملأى بالعدل والسلام. وتصف الرواية المقهى على لسان الصالحانيّ وصفاً بصريّاً يشفّ عن تاريخه، وتختم الوصف بمقولة من مقولات الرواية على لسان صاحب المقهى: "هو أقدم المقاهي في الحيّ، وكان مقرّاً لأشهر حكواتيّ، وله شهرة طائرة، ومازال يحتفظ ببوابة خشبيّة توحي بأنّها لقلعة، بينما الواجهة الزجاجيّة تظهر عند الافتتاح؛ لتشفّ عمّا في الداخل، بالرغم من اتّساخها المستمر، وهناك رسوم غطّت جدرانه، تمثّل بطولات تاريخيّة وشعبيّة بألوان وخطوط بدائيّة، ولمّا سأل الصالحاني صاحب المقهى عن الرسوم، فنظر بلا مبالاة، وهو يقول: الأجداد هم

[1] المصدر السابق، ص195، 196.

[2] المصدر السابق، ص197.

[3] المصدر السابق، ص197.

الأبطال ونحن نقدّم القهوة للزبائن."[1] فكان هذا المقهى بوصفه مكاناً مغلقاً متّسعاً بعض الشيء أليفاً ومناسباً لأوّل لقاء لمحبّة بالناس؛ حيث يتّسع بالمحتشدين المتعطشين لرؤية عجائبيّته، والذين أصغوا إليه بإعجاب؛ ولينشر الوعي من خلال هذا المكان الجماعيّ، وليصل صوته إلى أكبر شريحة من الناس البسطاء والعامّة، ويعرّفهم بحقوقهم، بعد سيطرة الخرافات عليهم، وإذعانهم لسلطة أسرة الراس، فوظّفت الرواية المقهى لذلك؛ كونه مكاناً جماعيّاً مأهولاً بالناس، ففيه شهود على الحدث العجائبيّ، مقارنةً بالمكان الفرديّ الذي يقتصر على عدد محدود من الأشخاص؛ ممّا يعضّد مصداقيّة وقوعه وإقناع المتلقي بذلك، وكما "يتميّز بطابع العلاقات التي تصل بين أكثر من فرد، ويلزمه الخضوع والسير حسب النظام المرسوم له."[2]، ونرى أنّ الرواية رسمته بتفاصيل تخدم العجائبيّة فيها، وتنتج الدلالات، ولم يكن مكاناً للقاء المحبّين أو مداراً للأحاديث والحوارات الثقافيّة والسياسيّة، بل أصبح أشبه بمنبر يتواصل من خلاله محبّة الجمر مع الناس، ويدعوهم إلى آرائه في المحبّة والسلام علانيّة. وفي المقهى ذاته "يتهجّم الرجل العابس على محبّة، ويتّهمه بسرقة القطّ"[3]، فيتحوّل إلى مكان عدوانيّ لمحبّة؛ ممّا أثار خوف أحمد على ابنه، واضطر إلى النزوح بعائلته إلى "حيّ الحريقة ثمّ **حيّ القيصريّة**"[4]: وكان هذا الحيّ أشبه بالمنفى لمحبّة وعائلته، وذلك بعد الأفكار التي دعا إليها الناس في المقهى، التي لا تتناسب مع أفكار أسرة الراس في السيطرة على عقول الناس، ولكنّ محبّة عاد إلى العمل مجدّداً محوّلاً غرفته العليّة إلى ورشة عمل، يُخطط فيها للوصول إلى باب الجمر، ولهذا انتقت الرواية من وجهة نظرها ثمّ من وجهة نظر الصالحانيّ من أوصاف الغرفة ما يوضّح هدف محبّة، وإنّ الغرفة على الرغم من انغلاقها وضيقها غدت متّسعة بهدفه، ومكاناً أليفاً: "كانت جدران الغرفة الصغيرة التي تبدو من الخارج كبرج للمراقبة، قد

[1] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص143، 144.

[2] ينظر: نور الدين، صدوق: البداية في النصّ الروائيّ، دار الحوار للنشر والتوزيع– سوريّة، ط1، 1994.

[3] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص206.

[4] ينظر: المصدر السابق، ص213، 214.

تحوّلت في الداخل إلى معرض للرسوم والخرائط والعلامات، منها ما عُلّق بدبابيس، ومنها ما رسمه محبّة وخطّه بيده. وتعلّقت عينا الصالحانيّ بلوحة خُططت بالطباشير فوق الفراش تُمثّل باباً قديماً هائل الحجم، يخترق جانباً من سور برزت أحجاره، وكأنّها قطع صلبة عن عالم غريب. هتف الفتى: هو ذا باب جمرك أنت"[1]، ولكن عندما تعلّق بجمانة، وفَقَدَ تواصله مع الطبيعة، تحوّلت إلى مكان معادٍ له، و"أحسّها الصالحانيّ ضيّقة كسجن يجلس فيه محبّة"[2]، فوصفها وصفاً مشوباً بمشاعره تجاه محبّة. وعندما "ألحّ محبّة على معلمه الصالحانيّ الانطلاق؛ للتنقيب عن باب الجمر المفقود، فذهبا إلى ما **خلف التلال في باب الجمر**، فحفرا حفرة كبيرة ونزلا فيها للتنقيب، فأتت آلة هادرة وردمت الحفرة بأمر من حردون الراس، ولكن فيما بعد يقع رئيس الرجال في الحفرة ذاتها مصادفةً، ويُكسر عموده الفقريّ، فداخلهم الشكّ فيما فعلوه وارتدّوا مذعورين. واختفى محبّة والصالحاني، في حين أنّ عائلة محبّة تنتظر عودته"[3]، فكان ممثّلاً للأمل في اقتلاع الواقع السيّئ، وللحقيقة بما فيها من خير وعدل وحبّ، التي ستسود يوماً بعد بحثه وتنقيبه عنها، وكما وصلت رسالة لجمانة من محبّة، عرضت فيها مقولة الرواية: "وهي أنّه فقير يحبّ الفقراء، ويبحث عن الحقيقة، وما من هدف له إلّا العمل والكشف عن حقائق الأمور."[4]، "وقال الصالحانيّ لوالد محبّة أحمد: "فإذا كان الباب لم نعثر عليه بعد، وقد سُمّي الحيّ باسمه، فليكن ذكر الجمر قائماً في ابنك الذي جاءك هبة"[5]. فثمّة قباحة في الواقع متمثّلة بعدّة صورة سلبيّة؛ ومنها ضياع الحقيقة من خلال ضياع الباب المفقود المختفي، وسيطرة عائلة الراس، التي رسمت الراس فزّاعةً في عقول الناس ومبشّراً طوباويّاً، فبقي الناس في باب الجمر قيد الخرافة، وراضين بجهلهم أن يكونوا الضحيّة، وخاضعين لاستغلال تلك العائلة، وإزاء هذا فإنّ محبّة الجمر هو الشخصيّة العجائبيّة البطوليّة، والمخلّص

[1] المصدر نفسه، ص227، 228.

[2] ينظر: المصدر السابق، ص252.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص291 إلى 297.

[4] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر السابق، ص298.

[5] المصدر السابق، ص58.

والمنقذ، وهو من سيحرّك الجمر من تحت الرماد؛ ليثور الناس ضد ظالميهم من عائلة الراس، وهو من سينشر الوعي فيهم، ويساعدهم في انتشالهم من واقعهم السيّئ ناشراً المحبّة، مزيلاً القباحة، معيداً الجمال، والحقيقة والعدل والتاريخ، "فتتبلّور من خلال الشخصيّة البطوليّة المواقف الثوريّة من الواقع الاجتماعيّ، ويُرتفع بالأيديولوجيا الثوريّة إلى مستوى القيمة الجماليّة الإيجابيّة"[1]، ومن خلال ما تقدّم نستشفّ عدداً من الثنائيّات التي تطرحها الرواية؛ السلطة والشعب، القوّة والضعف، الحقيقة والخرافة، الخير والشرّ، السلام والحرب. أمّا من حيث **الزمن** فقد عملت الرواية على رسم خطّين زمنيّين طبيعيّين، وكان لهما دور مؤثّر في العجائبيّة، وفي إفراز الدلالات السالفة:

زمن ذو مؤشّرات تاريخية: تُؤسس الرواية تاريخاً، هو تاريخ مدينة باب الجمر، وتاريخ أسرة الراس الذين دونوا التاريخ بما يتناسب وإبقاء سلطتهم وسيطرتهم، وقد عرضته الرواية بتفاصيل وإسهاب؛ لغاية إيهاميّة بالواقع الروائيّ بما فيه من أحداث عجائبيّة، فعادت إلى غابره، وبثت تواريخ تمتدّ إلى "ثلاثين قرناً، وذلك أثناء إنشاء سور المدينة خوفاً من خطر الغزوات"[2]، مروراً "بأيام الحكم العثمانيّ والتتاريّ والغزو الخارجيّ"[3]، وكما عرضت تأثير مرور الزمن في التغيّر المكانيّ العمرانيّ، وتغيّر وجه المدينة: "والمدينة تبدو مشغولة بالتململ والتوّسع ليلَ نهار، والعمارات ترتفع بقاماتها البيتونيّة صلبة عالية أو مترامية الأطراف، تملأ جوانب الشوارع الجديدة أو القديمة تكسوها شرائح الحجر الذي أدخلت الآلة مؤخّراً في صناعة إعداده وتحضيره، بعد أن كانت أجيال من الحجّارين تتفنّن في إخراجه كتلاً مجوّهرة، وتحفظ للمدينة أنوثتها الخالدة"[4]؛ لتبيّن تلاعب هذه الأسرة به لخدمة سيطرتهم.

زمن الحاضر لواقع الرواية: اعتمدت الرواية على التلاعب في الزمن؛ لخلق عجائبيّة محبّة الجمر؛ فكان هناك تناسب عكسيّ بين الزمن الطبيعيّ للنمو، وزمن نمو محبّة

---

[1] ينظر: كليب، سعد الدين: وعي الحداثة– دراسات جماليّة في الحداثة الشعريّة، دار الينابيع– سورية، ط2، 2010، ص222.

[2] ينظر: إخلاصيّ، وليد: المصدر نفسه، ص101.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص11، 12.

[4] المصدر السابق، ص94.

الجمر، فمحبّة بعجائبيّة نموّه يختزل مراحل الزمن الطبيعيّ للنمو جسداً وعقلاً: "فعندما أصبح في الثالثة من عمره، كان يضاهي أخته الكبرى طولاً"[1]، "لما اقترب من عامه الخامس كان يتقن قراءة كافّة أنواع الكتب، ونسّاجاً ماهراً"[2]، وتطالعنا الرواية في المسار السرديّ بأفعال كثيرة يقوم بها محبّة الجمر –عرضنا لها سابقاً– على الرغم صغر عمره، وفي نهايات الرواية تبيّن لنا أنّه "لم يتجاوز بعد سنّ السادسة"[3] عندما انتقل مع عائلته إلى القيصريّة، وأُعجب بجمانة، ثمّ رافق معلمه الصالحاني؛ للتنقيب عن باب الجمر، في زمن ربيعيّ[4] يعكس بجماله وخصوبته الربيع القادم لمدينة باب الجمر، من خلال تنقيبهما عن الحقيقة، وإزالة الخرافة المتحكّمة بعقول الناس. وجعلت الرواية **الليل** غير مرّة وقتاً محدّداً لعدد من الأحداث العجائبيّة فيها؛ "اختفاء محبّة، معانقة الأفعى له في فراشه، وإطاعة الذئاب له في العراء"[5]؛ مستثمرةً دلالات الليل في الظلام والغموض، ومناسبته للعجائبيّة بما فيها من أحداث فوق طبيعيّة.

خاتمة ونتيجة: بناء على ما سبق نرى أنّ رواية باب الجمر من الروايات السوريّة التي نحت إلى العوالم العجائبيّة، وفعّلت تأثيراتها على أكثر من جانب، فطالت الشخصيّة بصفاتها، والفضاء ببعديه المكاني والزمانيّ وغيرهما، فغدت مضيئة للعجائبيّة ورديفة لها.

المصادر والمراجع:

أ- **أحمد** مرشد، 2005- **البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصر الله.** الطبعة الأولى، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت.

ب- **إخلاصيّ** وليد، 1984- **باب الجمر**. الطبعة الأولى، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

[1] ينظر: المصدر السابق، ص128.

[2] ينظر: المصدر السابق، ص167.

[3] ينظر: المصدر السابق، ص214.

[4] ينظر: المصدر السابق، ص291.

[5] ينظر: المصدر السابق، ص142، 193، 107.

ت- **بحراويّ** حسن، 1990- **بنية الشكل الروائيّ**. الطبعة الأولى، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت.

ث- **بركات** سليم، 1985- **فقهاء الظلام**. الطبعة الأولى، كتاب الكرمل2.

ج- **تودوروف** تزفتان، 1993- **مدخل إلى الأدب العجائبيّ**. ترجمة الصديّق بو علّام، الطبعة الأولى، دار الكلام، الرباط.

ح- **جنداريّ** إبراهيم، 2013- **الفضاء الروائيّ في أدب جبرا إبراهيم جبرا**. الطبعة الأولى، تمّوز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.

خ- **حليفيّ** شعيب، 2009- **شعريّة الرواية الفانتاستيكيّة**. الطبعة الأولى، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر.

د- **كليب** سعد الدين، **وعي الحداثة**. الطبعة الثانية، دار الينابيع- سوريّة.

ذ- **محبّك** أحمد زياد، 2012- **نقد السرد**. دار الفرقان للّغات – حلب.

ر- **نور الدين** صدوق، 1994- **البداية في النصّ الروائيّ**. الطبعة الأولى، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية.